النخبة والعقيدة الاندماجية: " دراسة تقويمية في المراجع والأدبيات"

لـ: نيكولاي دياكوف
ترجمة:عبدالعزيز بوباكير

تمهيد: يشكّل النضال الطويل الذي خاضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي صفحة مشرقة، في سجل حركة الشعوب من أجل التحرر الوطني. فقد انتزعت الثورة الجزائرية (1954-1962) أكبر "الممتلكات الفرنسية وراء البحر" من براثن العبودية الاستعمارية، وأكدت نهائيا أن الجزائر ليست فرنسا، وأن سكانها ليسوا ولن يكونوا فرنسيين، بصرف النظر عن روابطهم التاريخية بفرنسا، واحترامهم للتقاليد الثورية للشعب الفرنسي. كما أسهم الكفاح المناهض للاستعمار في الجزائر، بوصفه حلقة لا تتجزأ في سلسلة ثورات التحرر الوطني في مرحلة الأزمة العامة للرأسمالية، إسهاما رفيعا في ذخيرة تجربة الحركة الثورية العالمية .

غير أن خصوصيات التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الجزائر، باعتبارها مستعمرة من النوع الانتقالي، كان الرأي العام في المتروبول وخارج حدود الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية يعتبرها "امتدادا لفرنسا" و"مقاطعة لها وراء البحر"، أوجبت تميّز طرق تشكّل الوعي الوطني للشعب الجزائري.

ويمكن تقديم صيرورة هذا التطور في سماته العامة كحركة في ثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: وتمتد من الوطنية الإقطاعية – العشائرية والوطنية الدينية البحتة، التي جرت تحت لوائها المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين، بعد احتلال الجزائر في 1830 وإلى غاية الانتفاضات الكبرى الأخيرة التي قامت بها بعض القبائل بين 1881-1883.

- المرحلة الثانية: هي مرحلة تكوّن الوطنية الليبرالية – الإصلاحية للبورجوازية الجزائرية الفتية التي كانت سائدة بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، إلى جانب الوطنية الإسلامية التقليدية أو ما يسمى "بالعمائم القديمة."

- وأخيرا المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الانتقال إلى الوطنية الثورية الديمقراطية للجماهير الواسعة، التي أدت في نهاية المطاف إلى انتصار ثورة التحرير الوطني.

وقد خصصنا هذه الدراسة للمرحلة الثانية، حين فسحت الانتفاضات العفوية ضد الفرنسيين، التي قامت بها بعض القبائل أو مناطق معينة من الوطن، المجال لأشكال سياسة

جديدة في الكفاح، تسلّح بها ممثلو قسم نشيط سياسيا من البورجوازية الوطنية الفتية، والانتليجنتسيا البورجوازية التي دخلت التاريخ تحت اسم الفتيان الجزائريين.

والهدف من هذا العمل الذي نقترحه على القارئ؛ هو تقديم تحليل واف، في حدود الإمكان، للشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لظهور حركة الفتيان الجزائريين، وتتبع تطورها وارتباطها بالمجموعات الأخرى للوطنية الجزائرية، وكذلك بالقوى السياسية التي حددت نهج سياسة المتروبول الاستعمارية. وغرضنا الأساسي هو إبراز الطابع المناهض للاستعمار لانطلاقة الفتيان الجزائريين، وكفاحهم ضد "الأسياد الاستعماريين"، وضد السلطات المحلية في سبيل حقوق مواطنيهم. وأخيرا الكشف عن أهميتها للتطور المطرد لحركة التحرر في الجزائر.

فالموضوع المباشر لدارستنا، إذن، هو تطور حركة الفتيان الجزائريين منذ نشأتها في1891-1892 إلى غاية 1918 ، حين دخلت الحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر، غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى "مرحلة جديدة تميزت بتغييرات مطردة وتعقد أشكال الكفاح المناهض للاستعمار، ونمو مستوى نضجه وتنظيمه"...

لقد اقتضى نمو الاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتغلغل الاحتكارات في اقتصاد الجزائر، إعادة بناء جذرية للبنية التقليدية للمجتمع المحلي، فظهرت طبقات جديدة ومجموعات اجتماعية، بما فيها البورجوازية الوطنية الفتية، التي كان من الطبيعي أن" تبرز كقائدة وزعيمة في بداية كل حركة وطنية."

وفي الوقت نفسه تشكلت بتشجيع من السلطات الانتليجنتسيا الجزائرية الجديدة، التي كان الاستعماريون "ينوون أن ينيطوا بها دور الوسيط في علاقتهم بجماهير الأهالي". لكن الشبان الجزائريين، بعد أن تحصلوا على تعليم حديث، وتشربوا بالمثل العليا للجمهورية- مثل المساواة والإخاء والحرية- أصبحوا يطرحون على أنفسهم أسئلة عن أسباب تجاهل هذه المبادئ في ديارهم .فالإجراءات التمييزية والقهرية التي اتخذتها المتروبول لم تنسحب فقط على القبائل التي كانت تنذر دائما بانتفاضات مسلحة، والفلاحين ومربي الماشية والبدو المتخلفين على المستوى الاجتماعي والثقافي، بل انسحبت أيضا على الجزائريين "المتطورين "المتخرجين من المدارس الكولونيالية والذين كانوا مستعدين لوضع المعارف الحديثة التي حصلوا عليها في خدمة شعبهم. وكان سخط هذه الفئات الوسطى في المجتمع الإسلامي هو المقدمة الاجتماعية والسياسية الرئيسية لانطلاقة الوطنيين الجزائريين في نهاية القرن الماضي.

ويرجع الفضل في إعداد المطالب الأولى ذات الطابع الوطني الشامل وفي رفعها إلى السلطات الفرنسية إلى الشبان الجزائريين. وقد رمزت حركة الفتيان الجزائريين لظهورها بعرائض وجهتها في 1892-1891 إلى لجنة مجلس الشيوخ الخاصة بالجزائر. وبلغت مداها الواسع في بداية القرن العشرين. آنذاك تحددت الأشكال الأساسية لنشاطهم الاجتماعي: كالجمعيات الثقافية التنويرية، والنوادي، والصحافة، والأعمال السياسية في شكل عرائض جديدة، والتجمعات والمظاهرات. وكان الحدث الرئيسي في هذه المرحلة هو رحلة وفد عن الفتيان الجزائريين في جويلية 1912 إلى باريس، حيث نشروا بيانهم، والتقوا رئيس الحكومة الفرنسية. وفي السنوات التالية وغداة الحرب العالمية أصبحت مطالب الفتيان الجزائريين أحد الأسباب الرئيسية للشروع في مناقشات في البرلمان الفرنسي، حول إمكانية إحداث تغييرات سياسية وإدارية في الجزائر. ورغم أنه لم تتحقق ولو نقطة واحدة من برنامجهم إلى غاية الإصلاحات الجزئية التي تمت في 1914–1919، إلا أن الفتيان الجزائريين أدوا رسالتهم التاريخية، واغنوا ترسانة الكفاح التحرري للشعب الجزائري بأشكال متقدمة جديدة، ولفتوا انتباه الرأي العام في المتروبول، إلى مشكلة الأهالي في الجزائر.

والفتيان الجزائريون، كما هو واضح من تسميتهم، يشتركون في بعض السمات مع الحركات الاجتماعية والسياسية الوطنية الأخرى في الشرق. فالمؤرخ الفرنسي شارل روبير أجيرون، وهو حجة متعمق في هذا المجال، يضعهم في صف واحد مع "حركات التجديد التي تحمل طابعا سياسيا وإيديولوجيا" مثل ألمانيا– الفتاة وايرلندا – الفتاة في أوربا والهند – الفتاة وتركيا – الفتاة إلخ... في آسيا .

لا تجوز دراسة حركة الفتيان الجزائريين، وخاصة في بداية القرن العشرين، بمعزل عن العملية العامة "لصحوة آسيا"، حيث "تفجر منبع جديد للعواصف العالمية العظمى". فقد ارتفعت في الجزائر، مثل بلدان الشرق الأوسط، أصوات تنادي بالنهضة الوطنية والثقافية مع الأخذ بالمكاسب الطليعية في الحضارة الغربية. ومثل المستعمرات الأخرى وشبه المستعمرات حيث "كانت البورجوازية الامبريالية تسعى إلى تغذية الحركة الإصلاحية بكل ما أوتيت من قوة"، فإن الوطنية الناشئة في الجزائر حملت في صلبها طابعا إصلاحيا. غير أن الظروف الاجتماعية والسياسية الملموسة للهيمنة الفرنسية الطويلة جعلت الإصلاح عند البورجوازية الجزائرية الفتية

يتخذ، بصفة خاصة، شكلا مشوّها للاندماج أضحى هو المبدأ الأيديولوجي الرئيسي، وفي الوقت ذاته، الأداة التكتيكية الهامة للفتيان الجزائريين.

بيد أن الدراسة المعمقة لحركة الفتيان الجزائريين في سياق سياسة فرنسا الاستعمارية، مع أخذ درجة تطور الاتجاهات الجزائرية الأخرى المناهضة للاستعمار بعين الاعتبار، تبيّن التسويغ التاريخي للمطالب الاندماجية للفتيان الجزائريين الذين كانوا يسعون، كما لاحظ المستشرق الروسي روبرت لاندا إلى "أن يتكيفوا مع ميزان القوة الذي فرضه الاستعماريون، ويندمجوا بعد تبنيه، وبهذه الطريقة يتساوون مع الفرنسيين". إن تحليل مثل هذا التكتيك على درجة كبيرة من الأهمية لفهم المسيرة المطردة لحركة التحرر في الجزائر. كما لا يجوز تجاهل التأثير الذي مارسته النزعة الاندماجية للفتيان الجزائريين على رسم التأثيرات المتبادلة بين التيارات الأساسية في كفاح الشعب الجزائري المناهض للاستعمار.

أفرز الاهتمام الطبيعي بالتاريخ الاستعماري في الجزائر، والذي برز إبان سنوات الحرب الثورية التحريرية (1954-1962) ومازال مستمرا إلى الآن، مجموعة كبيرة من الأدبيات الجديدة، كالمذكرات السياسية والمقالات والمؤلفات العلمية العميقة ، التي تقدم في غالب الأحيان تأويلات جديدة تماما، وغير متوقعة لأحداث وظواهر كانت تبدو مدروسة بما فيه الكفاية. ومع ذلك، فإن أحداثا كثيرة معينة، بل وحتى مراحل كاملة من التاريخ الاستعماري في الجزائر، تحتاج كما في السابق إلى معالجة مستفيضة. والمثال الواضح على ذلك مشكلة تطور الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار، بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، وبصفة خاصة حركة الجزائر – الفتاة نفسها. فنحن لا نجد في الأغلبية الساحقة من الدراسات المتوفرة سوى تذكير وجيز بالفتيان الجزائريين، وفي أفضل الأحوال وصف سطحي لهم. ولم تصدر حتى الوقت الحاضر ولو دراسة واحدة مخصصة مباشرة للفتيان الجزائريين.

وتكتسي من الناحية النظرية والمنهجية مقالة كارل ماركس "النتائج المستقبلية للسيطرة البريطانية على الهند" أهمية خاصة بالنسبة لهذا الموضوع. ففي هذه المقالة يشير المؤلف إلى عملية نشوء الانتليجنتسيا الوطنية الفتية "تحت رقابة" السلطات الاستعمارية.

كما أن ملاحظات ماركس للواقع الجزائري، والتي عبر عنها في رسائله من الجزائر إلى فريدريك أنجلز، وبول لافارج، تنطوي على قيمة كبيرة. وأولى أنجلز كذلك اهتماما كبيرا لتطور التوسع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وبلدان المغرب الأخرى. وقد تطرق إلى ذلك بالدرجة

الأولى في مقالته "الجزائر" التي كتبها "للموسوعة الأمريكية الجديدة" سنة 1857. كما أشار أنجلز في رسائله إلى برنشتاين وكاوتسكي وكذلك في إضافاته إلى المجلد الثالث من "رأس المال"، التي كتبها سنة 1895 قبيل موته، إلى الظواهر الجديدة في السياسة الاستعمارية للدول العظمى ومنها فرنسا، إلى الاستعمار الامبريالي الذي "يخدم مصالح البورصة". ويفكر أنجلز في رسالته المشهورة لكاوتسكي المؤرخة بـ 12 سبتمبر 1882 في سبل التحرر الوطني في مختلف البلدان الخاضعة للاستعمار، ملاحظا بهذا الصدد إمكانية قيام ثورات تحررية في الهند، والجزائر، ومصر، وغيرها من البلدان...

وتكتسي أقوال لينين عن العدوان الايطالي على ليبيا 1911-1912 أهمية كبيرة لفهم الوضع العسكري والسياسي في بلدان المغرب. وكذلك الأمر بالنسبة لملاحظاته في "كراسات عن الامبريالية" بخصوص التوسع الاستعماري الفرنسي في المغرب، وطابع الأعمال الممكن قيامها في المغرب، والجزائر، ضد فرنسا.

وقد استخدمنا في معالجتنا لهذا الموضوع وثائق سياسية ومقالات ومذكرات المشاركين في حركة التحرر الوطني، وكذلك مذكرات بعض الشخصيات السياسية والاجتماعية المنتمية إلى "المعسكر الاستعماري"، والتي صدرت بفرنسا في فترات مختلفة.

وتمثل المعلومات التي خلفها الجزائريون أنفسهم المجموعة الرئيسية لمصادر الموضوع. ونذكر منها الكتاب الذي صدر سنة 1894 في قسنطينة، بقلم أحد أبرز شخصيات الفتيان الجزائريين الدكتور مرسلي بعنوان: "مساهمة في مسألة الأهالي في الجزائر". والدكتور مرسلي هو ابن ملازم في وحدات السبايس الفرنسية، تخرج من ثانوية ثم معهد في مدينة الجزائر. وكان ممثلا نموذجيا للانتليجنتسيا الجزائرية الجديدة، التي نشأت في ظروف النظام الاستعماري. ويضم الكتاب المذكور المقالات المنشورة في أسبوعية "laliberté coloniale ". وكان الهدف من وراء نشرها، حسب رأي المؤلف نفسه، هو "إنارة العقول المحرضة ضد الأهالي، وإظهار حالة هؤلاء المتدهورة، وبيان الوسائل الممكنة لإصلاح ذلك". ويشير المؤلف إلى أمثلة عديدة عن التعسف في استعمال السلطة "تحت غطاء الراية ذات الألوان الثلاثة". ويخاطب فرنسا مطالبا إعطاء "ضمانات جدية" لقومه وتحسين وضعهم المعنوي والمادي المزري، وتسهيل دخولهم في الأسرة الفرنسية العظيمة". كما عرضت في هذا الكتاب مطالب سياسية

واجتماعية واقتصادية، تخص توسيع تمثيل المسلمين، وإلغاء محاكم الصلح، والعمل بالمساواة في جباية الضرائب..

ولإسناد هذه المطالب؛ يورد الدكتور مرسلي مقتطفات من كتيب وضعه محام من عنابة يدعى خوجة، وهو أحد ممثلي الصفوة المتفرنسة، وجهه إلى لجنة مجلس الشيوخ في 1891، وكذلك نص عريضة وجهتها في نفس السنة مجموعة من مسلمي قسنطينة إلى البرلمان الفرنسي. وقد اعتبر صدور كتاب الدكتور مرسلي في ذلك الوقت حدثا بارزا في توسيع كفاح المسلمين الجزائريين في سبيل حقوقهم، ويدل أيضا على نشوء شكل هام من النشاط الاجتماعي والسياسي للانتليجنتسيا الليبرالية المحلية، انتشر بشكل خاص في مطلع القرن العشرين.

وترك كتاب "المسلمون الفرنسيون في شمال أفريقيا" الذي وضعه السيد حامت، الترجمان الرئيسي للحاكم الفرنسي العام في الجزائر، صدى واسعا. فقد كتب هذا المؤلف، وهو يتحدث عن التغييرات التي أحدثها الاستعمار في الجزائر عن "التطور الاجتماعي والفكري والأخلاقي" للمجتمع الإسلامي، وعن "التوحيد" التدريجي لكل عناصر العرقية اختلاطها مستقبلا بالسكان الأوروبيين. ويضيف حامت: "إن الشعبيين يكملان بعضهما البعض، إلى درجة أن تطور أحدهما بدون الآخر مستحيل تماما".

ويورد المؤلف، وهو اندماجي راسخ العقيدة، حقائق ملموسة ومعطيات إحصائية عن اندماج الصناعة والتجارة والثقافة" الأهلية" في القطاعات الاستعمارية. وتكتسي أهمية كبيرة المعلومات التي ذكرها المؤلف من سير الكثير من الفتيان الجزائريين، مثل أحمد بن بريهمات والعربي فخار، والدكتور مرسلي، والدكتور ابن التهامي، وآخرين . . . وقد لقي كتاب حامت رواجا واسعا في أوساط الاندماجيين الجزائريين، وفي الوسط الليبرالي الفرنسي "المحب للعرب"

ومن بين الوثائق الرئيسية في تاريخ حركة الجزائر – الفتاة نجد، بلا شك، عريضة "عن الإجراءات التي يطالب بها المسلمون الفرنسيون في الجزائر لقاء الخدمة العسكرية" التي وجهها يوم 26 جوان 1912 وفد عن المسلمين الجزائريين يرأسه الدكتور بن التهامي إلى الوزير الأول الفرنسي بوانكاري، والتي اشتهرت في علم التاريخ "ببيان الفتى الجزائري". وتضم هذه الوثيقة عمليا المطالب الأساسية للفتيان الجزائريين. ونجد عرضا مفصلا لهذا البيان، مع بعض التعليقات عليه في النصوص التي أصدرها المؤلفان الفرنسيان كولو، واندري، سنة 1978 بعنوان "الحركة الوطنية الجزائرية" نصوص (1912– 1954).

وانعكس البرنامج السياسي للفتيان الجزائريين في المرحلة الختامية من نشاطهم في الكتاب الذي أصدره سنة 1914 الشريف بن حبيلس تحت عنوان: "الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي". وكان الشريف بن حبيلس شخصية اجتماعية ودينية بارزة، شغلت منصب قاض في قسنطينة. ويتوجه في كتابه هذا إلى السلطات الفرنسية بمطالب من أجل وضع حد لدونية المسلمين الجزائريين .وكتب يقول "أنه من أجل تحطيم عدم المساواة ينبغي لفرنسا أن تحقق بحزم التقارب بين عنصري سكان الجزائر، عن طريق ضمان الأمن الاجتماعي بالدرجة الأولى، وتوسيع نظام التعليم... الخ. ويلاحظ بن حبيلس أن إحدى وسائل بلوغ هذا الهدف هي محاربة الأمية والأفكار المسبقة. ويتحدث عن "النخبة الأهلية" وهي "كوكبة من الشباب تخرجت من الجامعات الفرنسية، واستطاعت أن تسمو فوق الجماهير، وتصبح في صفوف حملة الحضارة الحقيقيين وتتحمل على عاتقها مسؤولية خاصة". وكنموذج لهذا النشاط التنويري يقدم بن حبيلس "نادي صالح باي" للفتيان الجزائريين في قسنطينة. وتستحق الاهتمام الخاص تلك الخطب والمحاضرات التي ضمنه الكتاب بين دفتيه تحت عنوان "محاربة الجهل" والتي ألقاها في "نادي صالح باي" نائب رئيس النادي المفتي محمد المولود بن موهوب. ويعتبر كتاب الشريف بن حبيلس العلامة البارزة الأخيرة في النشاط الفكري والأدبي للفتيان في مرحلة صعود نشاطهم الاجتماعي والسياسي.

وقد استقينا وثائق هامة (نصوص عرائض، مقتطفات من مقالات، برامج أعمال نوادي الفتيان الجزائريين..الخ) من مختلف الأعمال المكرسة للقضية الجزائرية، والتي ظهرت في فترة الحملة من أجل إصلاح النظام الاستعماري في مطلع القرن العشرين. لكن لم تتح لنا، للأسف، إمكانية الاطلاع المباشر على مصدر هام في تاريخ الفتيان الجزائريين؛ وهو صحافتهم التي لعبت دورا ثقافيا وتنويريا هاما، وعكست مباشرة طابع المطالب السياسية للفتيان الجزائريين في كل مرحلة ملموسة من نشاطهم. واستطعنا أن نستمد الكثير من المعلومات عن محتوى وهيكل صحافة الفتيان الجزائريين وتوجهاتها الرئيسية وكذلك عن جوانب أخرى من نشاطهم من دراسات متخصصة مثل :

- ✓ "صحافة الثورة الجزائرية" (لتراسكونوفا) موسكو 1979.
- ✓ "تاريخ صحافة "الأهالي" منذ نشأتها إلى غاية 1930 لزهير احدادن.

ومن دوريات علمية كالمجلات التاريخية والاستشراقية، ونشرات الجمعيات العلمية مثل :

- ✓ نشرة ديوان الحكومة العامة للجزائر (الجزائر 1902-1914)
- ✓ نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (لندن)
- ✓ المجلة الأفريقية (الجزائر 1900-1916)
- ✓ مجلة تاريخ وحضارة المغرب (الجزائر1968-1970)

وينبغي الإشارة أيضا إلى بعض المصادر الأساسية كمقالات ومذكرات الشخصيات الاجتماعية الجزائرية التي اشتهرت في مرحلة متأخرة، وعكست المصير اللاحق لأفكار الفتيان الجزائريين .

في سنة 1924 صدرت في الجزائر عن دار النشر"Trait d union" تحت إشراف الكاتب سبيلمان مجموعة الخطب التي ألقاها الأمير خالد في ديار الغربة أمام الرأي العام الفرنسي في جويلية 1924. وتضم هذه المجموعة، بصفة خاصة، الرسالة المفتوحة التي وجهها الأمير خالد إلى الوزير الأول الفرنسي الجديد إدوارد هيريو، والتي عرض فيها برنامجا واسعا للمطالب السياسية، بدءا من التمثيل التناسبي للمسلمين الجزائريين والأوروبيين في البرلمان الفرنسي، وانتهاءا بالمطالبة بالحرية التامة لهجرة العمال "الأهالي" إلى فرنسا. ويتضح في هذا الكتاب موقف الجناح الثوري – الديمقراطي للوطنيين المنحدرين من أوساط الفتيان الجزائريين.

أما مؤلفات فرحات عباس فتتميز بطابع مختلف. فكتابه "من المستعمرة نحو الإقليم" ينتمي إلى المرحلة الاندماجية من نشاط المؤلف، الذي يعتبر نفسه من أتباع الفتيان الجزائريين. ويخاطب فرنسا مصرحا "يمكنها الذود عن مصالحها فقط بواسطة "سياسة العتق الصادق" و"النهوض الاجتماعي بالجزائريين الأصليين". ويناشد فرحات عباس حكومة المتروبول قائلا : "علّموا الجزائري، شدّوه إليكم اقتصاديا وإداريا". والأطروحة الرئيسية لهذا الكتاب، الذي مارس تأثيرا كبيرا آنذاك على الشباب الجزائري، هي على حد تعبير شارل روبير أجيرون، "ضرورة الانتصار على الاستعمار من أجل تحقيق الوفاق المرجو بين الفرنسيين والمسلمين".

غير أن عشرات السنين من النضال حملت هذا "الفتى الجزائري" على إعادة النظر في آرائه في "الدور الحضاري" لفرنسا. فعند تقييمه لحصيلة فترة 130 سنة من "الفضائع والقوانين

العنصرية فى تاريخ الجزائر الاستعماري" كتب عباس فرحات في مذكراته "حرب وثورة الجزائر –الليل الاستعماري": "إن الفرنسي المنتصر حكم على الجزائري "المهزوم" أن يصبح أداة لازدهار غيره.."

ويمكن، بكل تأكيد، أن نسمي كتاب الزناتي "المشكلة الجزائرية كما يراها أحد الأهالي" عقيدة الاندماجية الجزائرية. وكان الزناتي معلما قبائليا، أشرف على مدى عشر سنوات على جريدة(voix indigène) ، التي كانت لسان حال المثقفين ذوي النزعة الاندماجية. ويستخلص الزناتي في كتابه هذا "صيغة مستقبل" الجزائر، المتمثلة في رأيه في "التعاون المؤدي إلى الاندماج" .وهو يرى أن مهمة الصفوة "الأهلية" تكمن في أن تتطور في أطر وطنية، وتقترب أكثر فأكثر من معلميها الفرنسيين".

لقد اكتسبت النزعة الاندماجية للصفوة هذا الشكل "الراديكالي" بعد الحرب العالمية الأولى، غير أن هذه الإيديولوجية أصبحت في الظروف الاجتماعية، والسياسية الجديدة عضوا متخلفا، متبق في الجسم المتنامي بسرعة للحركة الجزائرية المعادية للاستعمار .

وتميز برنامج الوطنيين الجزائريين بقوة حيوية أكبر بكثير. ويسترعي الانتباه في هذا المجال عمل مالك بن نبي "خطب عن شروط النهضة الجزائرية". فالمؤلف يعتبر أن أهم هذه الشروط هو تطوير الثقافة الأصيلة الخاصة: "شعب بلا ثقافة هو شعب بلا تاريخ !". ويلقي مالك بن نبي الضوء في "مذكراته" على تاريخ نشأة التيارات المناهضة للاستعمار في الجزائر. ويضع في هذا المجال حدا فاصلا بين حركة "حزب المحظوظين"، الذي تنتسب إليه الشخصيات البارزة من الفتيان الجزائريين، وحركة الإصلاح الإسلامية، التي ينتمي أعضاؤها، وكذلك المؤلف، إلى "أسرة روحية واحدة".

ويحتل البحث الذي كتبته الشخصية السياسية الإسلامية المشهورة في فترة احتلال الجزائر، حمدان بن عثمان خوجة مكانة خاصة، ضمن المصادر الوطنية التي درسناها. وقد نشر هذا البحث المعروف "بالمرآة " باللغة الفرنسية سنة 1883. وكان الهدف الذي توخاه هو لفت نظر الرأي العام الفرنسي إلى فظائع المحتلين على الأرض الجزائرية. كما يعرفنا، في الوقت نفسه، بمواقف المتعاونين الأوائل من بورجوازية المدن، الميالة إلى التعامل مع المستعمر. وتعتب "مرآة" حمدان خوجة من حيث مقصدها، وكذلك طبيعة عرضها، في تقديرنا، نموذجا أصليا للأدبيات الصحافية للفتيان الجزائريين مستقبلا.

لا ينبغي اعتبار حركة الفتيان الجزائريين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظاهرة فريدة في الحياة السياسية لبلدان المغرب. فرغم بعض الاختلافات المبدئية التي أوجبتها خصوصية الوضع الاستعماري في الجزائر، فإن حركة الفتيان الجزائريين لم تكن منذ بدايتها صدى متميزا للكفاح السياسي "للفتيان المسلمين" في بلدان الشرق الأخرى، ومصر، وتونس بالدرجة الأولى فحسب، بل أنها تنظيميا وإيديولوجيا تطورت في فترة محددة، على شاكلة الفتيان المصريين، والتونسيين. ويثير الاهتمام في هذا الصدد الكتاب الذي وضعه عن حركة الفتيان التونسيين الشاذلي خير الله، وهو إحدى الشخصيات البارزة في حركة التحرر الوطني التونسية، وأحد مؤسسي الحزب الدستوري. ويعتمد كتاب "حركة تونس – الفتاة" (1956) على الذكريات الشخصية لمؤلفه، الذي يصف الخطوات الأولى لجمعيتي "الخلدونية"، و"الصادقية"، اللتين كانتا نموذجا للتنظيمات الأولى للفتيان الجزائريين. كما يقدم الشاذلي خير الله معلومات مثيرة للاهتمام عن الجمعيات التجارية الوطنية، ذات الرأسمال التجاري الموحد، كشكل من أشكال النشاط الاجتماعي للفتيان التونسيين.

وتتضمن المقالات المنشورة آنذاك في الصحافة الجزائرية، والتونسية، معلومات وثائقية هامة تلقى الضوء على عملية ميلاد الحركات السياسية في أوساط المسلمين الجزائريين. ففي بداية القرن العشرين احتلت جريدة (la dépêche algérienne) التي كانت تصدر في مدينة الجزائر مكانة الصدارة بين وسائل الإعلام الجماهيري الاستعمارية. وكانت تنشر دوريا على صفحاتها أخبارا عن "مسألة الأهالي".

وهكذا نشرت هذه الجريدة سنة 1912 مقالات ضافية للكاتب الاستعماري المعروف رواني، الذي يعلن بعد انتقاده لتصريحات الفرنسيين "المحبين للعرب" في جريدة Le Temps الباريسية" أن مواقفهم تلحق ضررا كبيرا بالمشروع الكولونيالي الفرنسي في الجزائر، لأن "النخبة المحلية الموالية للأتراك" يمكن حسب رأيه، أن تستخدمها لإذكاء روح التذمر في الجماهير الإسلامية. ويعتبر الكاتب أن هذه النخبة خطيرة جدا، كما يمكنها في الوقت ذاته أن تصبح "راع طيبا" للمسلمين الجزائريين، و"عونا ثمينا" لفرنسا، في قضية تطويرهم المعنوي والفكري.

وتحتوي الصحافة الكولونيالية الجزائرية التي درسناها (La dépêche algérienne L écho-Alger Chronique algérienne-) على معلومات عديدة، حول عمل الجمعيات الاستعمارية المحلية، والباريسية المنتخبة (بروتوكولات، نصوص خطب الخ...)، وحول الوضع السياسي

في الجزائر، والمناطق المغاربية الأخرى. وقد تناولت هذه الصحافة بالتفصيل، وبصفة خاصة رحلة وفد الفتيان الجزائريين إلى باريس في صائفة سنة 1912 . كما نشرت في الكثير من الأحيان على صفحاتها أخبارا عن النشاطات المختلفة لنوادي الفتيان الجزائريين.

ولعبت الصحافة الباريسية، وبالدرجة الأولى، النشرات البورجوازية الليبرالية الكبرى مثل Le Temps – Revue de Paris – Revue des Deux mondesالخ... دورا لا يستهان به، في توجيه الرأي العام الواسع في المتروبول، بشأن المسألة الجزائرية.

وشاركت جريدة Le Temps مشاركة نشيطة في الحملة من أجل الإصلاحات في الجزائر. وكانت الكثير من الشخصيات الاجتماعية المشهورة "المحبة للعرب" تكتب على صفحاتها. فالليبرالي Bourde نشر في ماي/ جوان 1912 سلسلة مقالات، تحت عنوان عام هو: "كيف ننظم شمال أفريقيا؟" تركت صدى سياسيا واسعا. واقترح فيها المؤلف مخططا للإصلاحات السياسية في الجزائر.

وفي مجلة "Revue de Paris " نشر الصحافي المعروف Millet مقالا مطولا عن الفتيان الجزائريين. وقد اشتغل ميلي فترة طويلة معلقا على القضايا الاستعمارية في مجلة Le temps، وكان من بين الأوائل ممن أطلعوا بالتفصيل الرأي العام الفرنسي على مطالب الفتيان الجزائريين، داعيا الحكومة، والإدارة الجزائرية أن تحسب لهم ألف حساب.

أما مجلة " Revue de paris " فقد نشرت في نوفمبر 1910 مقالا لمسيمي النائب، "المحب للعرب" الذي أصبح فيما بعد وزيرا للحرب. وتناول المقال الموارد العسكرية، لشمال أفريقيا الفرنسية، وأفاق إدخال الخدمة العسكرية الإلزامية بالنسبة للسكان المحليين.

وميسيمي، بالذات، هو الذي طرح سنة 1908 للمناقشة في البرلمان مشروع قانون للخدمة العسكرية، يخص المسلمين الجزائريين. وقد أثار هذا القانون احتجاج أغلبية السكان الأصليين في المستعمرة، وحدد إلى درجة كبيرة الشعارات التكتيكية للفتيان الجزائريين .

ونشرت معلومات مفيدة عن السياسة الجزائرية في سنوات مختلفة في Revue des deux mondes نذكر منها مقالة الكاتب البارز لوروا بوليو المعنونة: "فرنسا في شمال أفريقيا والكولون" .وفى نفس المجلة نشرت 1909 سلسلة مقالات تحت عنوان "النخبة الشرقية" بقلم لوي برتران، المبشر المعروف "بالدور الحضاري لفرنسا"، يحذر فيها الحكومة من خطر تسرب "أفكار إصلاحية خطيرة" من الشرق، إلى تونس، والجزائر.

ومن المصادر الهامة التي تقدم لنا تصورا عن تشكل الرأي الرسمي في المسألة الاستعمارية Revue Politique et parlementaire ، التي ترأس قسم الوقائع الكولونيالية فيها مدة طويلة ديبانسي، مسؤول القسم الآسيوي للاتحاد الكولونيالي الفرنسي، والذي ترأس سنة 1908 المؤتمر الكولونيالي للشمال الأفريقي. وتحدث ديبانسي في أحد أعداد هذه المجلة عن مشاركة بعض ممثلي "النخبة الأهلية" في الجزائر، وتونس، في هذا المؤتمر.

أما رأي الفئات "المتطورة" من السكان الأصليين في شمال أفريقيا في "التقارب الثقافي"، والاندماج مع المستعمرين، فقد عبر عنه على صفحات المجلة السياسة والبرلمانية السيد زاوش، وهو شخصية بارزة في حركة الفتيان التونسيين، وعضو ندوة تونس الاستشارية. وأشار السيد زاوش إلى الأساس الاقتصادي لتحركات مسلمي الجزائر، وتونس. هذه التحركات التي يدفعها إليهم" وعيهم بتخلفهم الاقتصادي...".

وقد استعملنا في دراسة موضوع الفتيان الجزائريين معلومات عن استعمار الجزائر، وعن الوضع الاجتماعي، والاقتصادي الإسلامي الجزائري، نشرت بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، في النشرات الدورية المشار إليها آنفا.

من ضمن المصادر القيمة يمكن ذكر المجلة الإفريقيا "Revue Africaine " التي كانت تصدرها الجمعية الجزائرية للتاريخ .وكانت تنشر وثائق سياسية هامة، وخطب الشخصيات الاجتماعية حول مختلف أوجه السياسة الجزائرية، إضافة إلى دراسات في علم الآثار، والتاريخ، والاثنوغرافيا، بصورة أساسية "قبل العهد الفرنسي."

تتضمن مقالات وخطبا، ومذكرات الشخصيات السياسية الفرنسية، وممثلي الإدارة الاستعمارية، والجماعة الأوروبية في الجزائر معلومات وثائقية قيمة. وتكتسي في هذا الصدد المعلومات التي تعكس موقف الاشتراكيين الفرنسيين من القضية الجزائرية أهمية خاصة، إذ يستحيل عدم الالتفات إلى وجهة نظر جون جوريس، التي عرضها في خطبه العديدة، ومقالاته التي تجلى فيها تطور آراء زعيم الاشتراكيين الفرنسيين، بشأن المسألة الاستعمارية (انظر: جون جوريس. نصوص مختارة ضد الحرب والسياسة الاستعمارية . باريس 1919)

كما توجد معطيات رسمية عن تطور الاستعمار، ومختلف جوانب نشاط الإدارة المحلية في "نشرة ديوان الحاكم العام للجزائر (1902-1914)، وفي عرض الوضع العام للجزائر (1918-

1928). وهناك مجموعة معينة من المصادر؛ هي عبارة عن مذكرات لبعض الحكام العامين للجزائر، تتضمن معطيات واقعية عن دور الإدارة الفرنسية في حياة المستعمرة.

وتجدر الإشارة في هذا المجال على الخصوص، إلى العمل الذي نشر سنة 1918 لكومبون "الحكومة العامة للجزائر" (1891-1897) ، "وقد ساهم كومبون شخصيا إلى حد ما في نهوض النشاط الاجتماعي للنخبة الإسلامية، وكذلك كتاب خطب ش. ليطو، التي ألقاها في مجلس النواب خلال مناقشة "السياسة الأهلية" في شمال أفريقيا، ومذكرات ستيغ "السلم الفرنسي في شمال أفريقيا"، وفيوليت "هل تحيا الجزائر؟" "

وتقدم كتب الانطباعات التي نشرها أصحابها بعد قيامهم برحلات داخل البلاد في بداية القرن العشرين تصورا متعدد الجوانب، عن الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية للجزائر. ونذكر منها" :رسائل عن الجزائر" (1907 – 1908)" للجنرال دونوب، و"الجزائر اليوم" لغاي، و"في فرنسا الأفريقية" لروندي سان، و"الجزائر الحقيقية" لستوت، و"حول الجزائر" لتوماس ستانفورد.

كما نشر النائب اليميني الفرنسي أجام كتاب "مشاكل جزائرية" في شكل انطباعات رحلة بعد زيارته الجزائر سنة1913 ، وقدم فيه تقييما سلبيا حادا، ووصفا استعماريا لحركة الفتيان الجزائريين.

وكان المستعرب الروسي البارز لوتسكي أول من أثار في روسيا مشكلة ظهور الحركات الوطنية في الجزائر، وأول من استعمل في الأدبيات الروسية مصطلح المسلمون–الفرنسيون" للدلالة على ممثلي الانتيليجنسيا الجزائرية المتفرنسة، والبورجوازية التي كانت تؤيد الاندماج بالمستعمر. ونجد استعراضا مستفيضا للحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر، بعد الحرب العالمية الأولى في المقالة التي كتبها لوتسكي، بالاشتراك مع نرسيسوف، والتي أدرجت في كتاب "تاريخ أفريقيا الحديث".

ونشرت في روسيا سنة 1976 أول دراسة تحتوي على تحليل مستند إلى مراجع كثيرة، تخص التأثيرات المتبادلة بين المجموعتين الرئيسيتين لسكان الجزائر في العهد الاستعماري. وتحمل هذه الدراسة عنوان: "كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي" (1830–1918). ويرى مؤلفها روبرت لاندا، أن الموضوع الأساسي لعمله هو "التطور الموازي للاستعمار، والحركة المناهضة له حتى 1918". وخصص جزءا من الكتاب مباشرة لصحوة "الأهالي"،

وتطور الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار بفرعيها: الوطنية الإسلامية للتقليديين، واندماجية الفتيان الجزائريين. ويبين لاندا السببية التاريخية لوجود هذين التيارين، معتبرا أن لكل تيار "جوانبه الإيجابية والسلبية."

كتاب "تنامي الحركة المناهضة للاستعمار في الجزائر 1918-1931" لنفس المؤلف، هو الاستمرار المنطقي للموضوع نفسه، حيث يقدم لاندا صورة للحياة الاجتماعية، والسياسية في الجزائر، بعد الحرب العالمية الأولى. ويكتسي أهمية خاصة بالنسبة لموضوعنا، في هذا الكتاب وصف نشاط المجموعات الأولى من خلفاء الفتيان الجزائريين في ظروف تاريخية جديدة. وهؤلاء كانوا من جهة الأمير خالد وأتباعه، الذين كانوا يطمحون "إلى توحيد كل الاتجاهات السليمة والثابتة المبادئ في الحركة الوطنية"، ومن جهة ثانية، أتباع الاندماج الذي "ظل اتجاها عقيما وعديم الأفق في الوطنية الجزائرية، واتخذ الآن طابعا معاديا للوطنية لا غبار عليه."

كما قدم روبرت لاندا في مقالته التعميمية "أشكال الكفاح المناهض للاستعمار في الجزائر "المنشورة في مجلة "شعوب آسيا وإفريقيا"، وصفا موجزا للأشكال الرئيسية في الكفاح المناهض للاستعمار في الجزائر، بين تخوم القرنين التاسع عشر، والعشرين.

واستعملنا كذلك بحوثا لعلماء روس آخرين، خصصت للحركة الوطنية التحريرية في الجزائر. ومنها دراسة خميلوفا" دولة الأمير عبد القادر الجزائري، "وكتاب داتلين "شعوب تونس والجزائر والمغرب وكفاحها من أجل الاستقلال"، ودراسة باتيومكين "سياسة فرنسا الاقتصادية في بلدان المغرب"، وأعمال تراسكونوفا عن تاريخ الصحافة الوطنية الجزائرية، وبحث غولدوبينيم، الذي تعرض فيه لمسائل نشوء حركة الفتيان الجزائريين في القسم الخاص بالجزائر، من كتاب "التاريخ الحديث لبلدان آسيا وإفريقيا."

في سنة 1980 صدرت دراسة مرتبطة مباشرة بموضوع بحثنا تحمل عنوان "الانتليجنتسيا في بلدان المغرب، لصاحبها فلاديمير ماكسيمنكو، الذي قام بأول محاولة في علم التاريخ الروسي، لتقديم تحليل عام لنشوء الانتليجنتسيا الجديدة في بلدان المغرب، والاتجاهات الأساسية لتطورها الفكري والسياسي، في مختلف مراحل الحركة المناهضة للاستعمار، وثورة التحرير الوطني.

وينمو الاهتمام كل سنة بتاريخ حركة التحرر الوطني الجزائرية، في أوساط علماء أوروبا الشرقية. يمكن الإشارة بصفة خاصة إلى بحث المؤرخ الألماني ماينيكي كلينت المعنون

Algérien marokko Tunesien unterjochung und befreiungالذي يحتوي على تحليل واف لحصيلة السيطرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وكذلك المراحل الرئيسية للكفاح التحرري في هذا البلد. كما يمكن استخلاص معلومات نظرية مفيدة، من المقالة المطولة التي كتبها الباحث المجري شلغو بعنوان "عن دور العوامل الاقتصادية والسياسية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في فترة ما بعد 1871"، والتي يشير المؤلف فيها إلى أن دور العوامل الاقتصادية وغير الاقتصادية في تاريخ التوسع الاستعماري الفرنسي يمكن تقييمها، فقط بالنظر إلى "علاقاتها المتبادلة، والأخذ بعين الاعتبار للنتائج التاريخية، التي مازالت ماثلة إلى اليوم".

أما في التدوين التاريخي الجزائري فقد كان أبو القاسم سعد الله أفضل من ألقى الضوء على نشاط الفتيان الجزائريين في كتابه "الحركة الوطنية الجزائرية"، حيث درس بالتفصيل تطور كل التيارات المناهضة للاستعمار، من الأمير عبد القادر إلى العلماء المصلحين، وكذلك التأثيرات المتبادلة بينها. ويحلل المؤلف أسباب فشل انتفاضات القبائل المسلحة، وانتقال الجزائريين إلى أشكال النضال السياسي، معرفا حركة الفتيان الجزائريين، وايديولوجية الوطنية الاسلامية بصفة عامة. وقد حلل سعد الله الطابع الوطني لتحركات الفتيان الجزائريين، مشيرا إلى أن من بين "أهدافهم الأساسية؛ النضال ضد الإيديولوجية العنصرية، بوسائل سياسية شرعية". وبفضل هذا البحث احتل علم التاريخ الجزائري مكانته الشرعية، في التدوين التاريخي المناهض للاستعمار في الجزائر .

وخصص المؤرخان الجزائريان المعروفان محفوظ قداش، وعلي مراد، أعمالهما لوصف الوضعية السياسية في الجزائر، ما بين الحربين العالميتين. ففي أطروحته "الحياة السياسية في الجزائر في 1939 – 1919 "؛ بين قداش كيف أن الحياة السياسية في المدينة الرئيسية في المستعمرة تطورت بشكل غريب، على مستويين غير مرتبطين، تقريبا ببعضهما البعض. فمن جهة عاشت مدينة الجزائر سياسيا كمدينة فرنسية، ومن جهة ثانية؛ كانت تصطدم بمشكلتها الجزائرية، المنفصلة تماما أو إلى حد ما عن السياق السياسي الفرنسي". وتتضمن مقالات محفوظ قداش معلومات مفيدة، عن دور المجموعات الشيوعية الأولى في صياغة بعض الشعارات الوطنية للشعب الجزائري، وعن النشاط السياسي للأمير خالد.

وقدم علي مراد شرحا مفصلا لحركة الفتيان الجزائريين، في الفترة ما بين الحربين العالميتين، في كتابه الأساسي "النزعة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940".

ويعتبر على مرّاد أن "الفتيان الجزائريين بالذات؛ قاموا في هذه السنوات بدور بارز في صياغة الرأي العام الإسلامي، وأدوا وظيفة المعبرين عن المطالب إزاء السلطات والرأي العام الفرنسي". وبغض النظر عما يثيره هذا التأكيد الجازم الذي يسوقه المؤلف بوضوح، على حساب القوى الوطنية الأخرى، فإن كتابه يساعد على تشكيل صورة كاملة عن هذه الظاهرة الاجتماعية، السياسية المعقدة، ألا وهي حركة الفتيان الجزائريين.

ويعد كتاب مصطفى الأشرف "الجزائر الأمة والمجتمع" بحثا اجتماعيا، وسياسيا عميقا، عن تكوّن الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار. ويثير الانتباه هنا رأي المؤلف في مكانة البورجوازية الوطنية في الحركة التحررية، ويقود تحليل تحركات بورجوازية في المدن، في الجزائر، المؤلف إلى استنتاج عدم فعالية أية حركة ذات أصل بورجوازي، معزولة عن الشعب، وحاملة لطابع إصلاحي بحت.

ويوجب الاهتمام كتاب صغير الحجم، للمؤرخ الجزائري محمود بوعياد بعنوان "التاريخ على شريط"، يضم شهادات شهود عيان، ومشاركين مباشرين في بعض الأحداث الهامة في تاريخ الجزائر، في العهد الاستعماري، في النصف الأول من القرن العشرين. وقد سجل نصوص هذه الشهادات على شريط مغناطيسي عمال المكتبة الوطنية في الجزائر، التي كان محمود بوعياد مديرا لها. وتكتسي بالنسبة لموضوع بحثنا رواية جمال الدين سفنجة قيمة خاصة، وهو متحدر من عائلة بورجوازية عريقة، ويتحدث في هذا الشريط عن الحياة في مدينة الجزائر، في بداية القرن العشرين، وعن نشاط الوطنيين المسلمين الأوائل، بمن فيهم الفنان الجزائري الكبير عمر راسم.

وتكشف الشخصية السياسية البارزة للجزائر الاستعمارية نارون في بحثها "فرحات عباس أو طريق السيادة"، عن دور الاندماجية في نضال الشعب الجزائري، وقد وصف نارون الفترة "الاندماجية" من نشاط فرحات عباس بـ "عهد الأوهام."

وفي السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة هامة من الأبحاث، لمؤلفين جزائريين من الجيل الجديد. ففي سنة 1978 ناقش زهير احدادن في جامعة باريس أطروحة بعنوان: "تاريخ الصحافة الأهلية في الجزائر منذ نشأتها حتى 1930". وهذا العمل يقدم لأول مرة تحليلا عميقا عن نشاط ما يسمى في العهد الاستعماري بصحافة "الأهالي". ويشرح زهير احدادن ويصنف النشرات "الأهلية"، ويرصد تطورها، مبرزا فيها مراحل معينة متعلقة بظروف تاريخية وسياسية ملموسة.

وهذا البحث غني بمعلومات واقعية، وشهادات مستفيضة للمشاركين في حركة الفتيان الجزائريين، وكذلك معلومات عن صحافتهم ونواديهم.

ويرى المؤلف؛ أن المغزى السياسي الرئيسي لصحافة "الأهالي" يتمثل في كونها "استطاعت أن تضفي على كفاح الشعب الجزائري طابعا سياسيا"، وهذه الدراسة في رأينا حدث كبير في علم تدوين التاريخ الجزائري للحركة المناهضة للاستعمار، وفي تحريره من إرث التاريخ الاستعماري.

خصص الأستاذ بن أشنهو في كتابه "تكوّن التخلف في الجزائر 1830-1962" لظهور الرأسمالية في الجزائر وتطورها، وما ارتبط بها من إعادة بناء البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامي على امتداد الفترة الاستعمارية كلها. ويلاحظ المؤلف أن مجال نشاط البورجوازية الوطنية الجزائرية كان محدودا سياسيا، واقتصاديا، وخلقت هذه الوضعية تبرما في أوساط البورجوازية المحلية، وأصبحت سببا من أسباب انتشار الوطنية في الجزائر. وكتب بن أشنهو أن"البورجوازية وفقراء الفلاحين والنخبة المثقفة المضطهدة على المستوى الاجتماعي، شكلوا جميعهم القاعدة الاجتماعية لثورة التحرير الوطني (1954-1962). وقيمة هذا الكتاب التي لا مراء فيها، تكمن في احتوائه على تحليل اجتماعي، واقتصادي شامل، لعملية تراكم رأس المال، وتكوّن البورجوازية الوطنية الجزائرية، على امتداد فترة الهيمنة الاستعمارية الفرنسية .

وتفيد بحثنا المعلومات النظرية والوقائعية التي استخلصناها من أعمال باحثين جزائريين آخرين، وهي بالدرجة الأولى، "تاريخ الجزائر" للشخصية الاجتماعية والدينية المعروفة مبارك الميلي، و"الجزائر في مرآة التاريخ" لعبد الله شريط ومحمد الميلي، و"أضواء على الاستعمار الفرنسي في الجزائر" و"الجزائر عبر الأجيال" لمحمد الجزائري، و"التطور السياسي في الجزائر" لبلحاج، و "سلب الفلاحين" لجيلالي صاري، و"المقاومة الجزائرية" لعكاش، و"مدخل إلى تاريخ الجزائر" لجندر.

أما الأدبيات التي صدرت في البلدان العربية الأخرى، والمتعلقة بتاريخ الجزائر فتحمل، كقاعدة عامة، طابعا سطحيا، ماعدا أعمال العالم المصري الكبير صلاح العقاد "المغرب العربي"، و"محاضرات عن تطور السياسة الفرنسية في الجزائر". فرغم العيوب المتميزة لعلم التاريخ البورجوازي، فهي تحتوي على معلومات متعلقة مباشرة بالفتيان الجزائريين، وسياسة

فرنسا" الأهلية" في الجزائر، التي كانت تهدف، حسب رأي صلاح العقاد، إلى فرض الهيمنة الإدارية، والاجتماعية، والثقافية، للعرق الفرنسي.

وخصص يحي جلال، وهو أستاذ في جامعة القاهرة، كتابه "السياسة الفرنسية في الجزائر" لعلاقة عملية نشوء الحركات الوطنية في الجزائر، بالظواهر الجديدة في الحياة الاجتماعية والسياسية في المشرق، وأوروبا. وقد حددت هذه العلاقة في رأيه السمات المميزة للحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار وأشكالها.

وأبرز علال الفاسي، زعيم ومؤسس حزب "الاستقلال" المغربي، في كتابه "الحركة الاستقلالية في المغرب العربي" بصفة خاصة، دور الفتيان الجزائريين، في دعم استقلال المغرب، وتنديدهم بالعدوان الفرنسي على هذا البلد.

غير أن القسم الأساسي من الأدبيات العلمية لدراسة هذه المسألة تمثله أعمال المؤلفين الفرنسيين. وتحتل أبحاث ومقالات شارل روبير أجيرون، المختص في القضايا المغاربية، مكان الصدارة بينها .ويستحيل إلى حد الآن التفوق على أطروحته التي نشرها سنة 1968 "المسلمون الجزائريون وفرنسا (1871-1919)"، والتي تقع في 1300 صفحة، سواء من حيث سعة المراجع المستعملة، أم من حيث المعلومات الوقائعية التي تضمنتها. فبعد تناوله عمليا لكل جوانب حياة المستعمر، بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين، يحلل المؤلف مقدمات صحوة المسلمين الجزائريين. وأفرد فصلا خاصا للرأي العام الإسلامي، وتطور حركة الفتيان الجزائريين قبيل الحرب العالمية الأولى. ويبين المؤلف كيف بدأ الجزائريون الذين سحقتهم وأهانتهم الهيمنة الاستعمارية، يرفعون شيئا فشيئا أصواتهم، معبرين عن "رغبتهم في المشاركة في كل مجالات حياة البلاد."

ويقدم المؤلف تحليلا على جانب كبير من الأهمية، عن التأثيرات المتبادلة للاتجاهين الأساسيين في الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار، وهما حركة الفتيان الجزائريين، والتقليديون أو "العمائم القديمة". ويؤكد أجيرون عدم جواز الاستهانة بهما، مشيرا إلى أن "التيارين كانا عمليا متناقضين طورا، ومتفقين في الاتجاه طورا آخر، ونتيجة ذلك؛ اتخذ ذلك المدى غير المتوقع، الذي كان يدل عن صحوة المسلمين الجزائريين."

وسبقت ظهور هذا العمل الأساسي لأجيرون مجموعة من المقالات، عن جوانب من الموضوع، قائمة بذاتها. وتضمنت ،بصفة خاصة، مقالته "حركة الفتيان الجزائريين 1900-1923

تعريفا أشمل للفتيان الجزائريين، حيث يلقى مؤلفها الضوء على مرحلة تنامي نشاطهم إلى غاية 1923، حين نفت السلطات من الجزائر الأمير خالد، وهو الشخصية المركزية للجزائر المسلمة آنذاك، فأصبحت حركة الفتيان الجزائريين نتيجة ذلك "معطلة على الأقل في الجزائر نفسها."

وتحتوي هذه المقالة، إضافة إلى ذلك، وقائع هامة عن نشاط جمعيات الفتيان الجزائريين، وكذلك استنتاجات مهمة عن دور الفتيان الجزائريين في تشكل الوطنية التي نمت، حسب كلمات أجيرون، من" الانتليجنتسيا" المصابة بخيبة أمل في ليبيرالية المتربول."

وتجدر الإشارة حين نتحدث عن عمل أجيرون "السياسة الاستعمارية في بلدان المغرب" الصادر سنة 1972، إلى الأهمية الخاصة التي تكتسيها أقسام من هذا العمل، متعلقة بعلاقة الاشتراكيين، والشيوعيين الفرنسيين، بالمشكلة الجزائرية، وكذلك الجزء الخاص بنشاط الأمير خالد.

ويحمل رد فعل المؤرخ البورجوازي ومؤيد الاستعمار "ياكونو" على دراسة أجيرون "المسلمون الجزائريون وفرنسا" أكثر من دلالة. فقد نشر ياكونو سنة 1970 عرضا للكتاب في "المجلة التاريخية" وكان نقده موجها، بالدرجة الأولى، إلى مواقف أجيرون من الأوروبيين الجزائريين، الذين يعتبرهم أجيرون السبب الرئيسي للإفقار المدمر للفلاحين. واتهم ياكونو أجيرون بأنه لم يول في كتابه اهتماما كافيا "للجوانب الإيجابية" للاستعمار مثل: مكافحة الملاريا، ونشر التعليم... الخ.. وفي تبريره لموقف المعمرين من "مسألة الأهالي" يتذرع ياكونو بأنهم كانوا "أقلية، وكانوا يرغبون في الحفاظ على المواقع المكتسبة، "لذلك كانوا "يتخوفون من أية تغييرات يمكن أن تؤدي إلى تفوق جماهير" الأهالي."

وأثار الاتجاه المعادي للاستعمار لكتاب أجيرون هجومات مجموعة أخرى من المدافعين الواضحين، والمتخفين وراء قناع الموضوعية الكاذبة من حماة الاستعمار الفرنسي، وفي نفس الوقت لقي الكتاب صدى إيجابيا من جانب العلماء التقدميين، ومنهم مؤرخو الجزائر المستقلة. فقد قيم محمود بوعياد ومحفوظ قداش، مثلا ، في حديثهما معنا تقييما عاليا أعمال أجيرون، وأشارا إلى المغزى الكبير لأبحاث أجيرون المتسمة بالموضوعية في معاداة الاستعمار، وبثبات مبادئها.

كما أسهم بعض المؤرخين الفرنسيين إسهاما ثمينا في المعالجة الموضوعية لمختلف مراحل الحركة الوطنية التحررية في الجزائر. فالمؤرخ (نوشي) يصل في بحثه "ميلاد الوطنية

الجزائرية" إلى استنتاج هام، وهو أن الجزائريين المتطورين سياسيا اضطروا بعد انتفاضة المقراني في 1871، وتحرك بعض القبائل في 1916، إلى التكيف مع السيطرة الاستعمارية، والسعي إلى الحصول إن لم تكن المساواة الكاملة في الحقوق المدنية لكل الجزائريين، فعلى الأقل التمثيل المناسب لوزنهم في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، وتخفيف "قانون الأهالي" في كل أشكاله. وتتضمن المؤلفات الأخرى لنوشي شرحا متعدد الجوانب، للوضع الاجتماعي، والسياسي في الجزائر، بين تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين. ومن هذه الزاوية يكتسي الكتاب الذي وضعه نوشي بالاشتراك مع لاكوست وبرينان "الجزائر ماضيا وحاضرا" أهمية كبيرة. فهذا العمل يحيط بتاريخ الجزائر منذ الأزمنة القديمة، إلى غاية "انتصار الاستعمار" في بداية القرن العشرين.

وأصدر المؤرخون الفرنسيون التقدميون مجموعة من الكتب، شجبوا فيها الجوهر الرجعي للسياسة الاستعمارية الفرنسية، ووقفوا بذلك في وجه العلم والدعاية البورجوازيين، مدافعين عن حق الشعب الجزائري في الاستقلال. وينبغي التذكير في هذا الصدد؛ بالدراسة التي صدرت مترجمة إلى اللغة الروسية سنة 1958 "الأمة الجزائرية موجودة" لإغريتو، والتي تتضمن في عنوانها ردا عنيفا على أوهام المستعمرين، حول غياب المقدمات التاريخية للوحدة الوطنية، وأسس الدولة عند الجزائريين، وكذلك العمل المشترك (لدريش وجوليان ومارو) "القضية الجزائرية"، وكتاب جونسون "الجزائر خارج القانون"، ودراسات أخرى...

والأعمال المذكورة – أعلاه – كتبت في أوقات مختلفة، بأقلام الأصدقاء الحقيقيين للشعب الجزائري، بعضها صدر في معمعة الكفاح التحرري ضد المستعمر الفرنسي، وأصبح سندا روحيا، وسياسيا هاما للجزائر المكافحة، وحظي بالاعتراف الصادق للوطنيين .

وفى 1981 صدر عن دار النشر الباريسية "Temps Actuel" المجلد الأول من "حرب الجزائر"، وهي دراسة تاريخية واسعة، مكرسة لتاريخ الحركة المناهضة للاستعمار في الجزائر. وأشرف على مجموعة مؤلفي هذه الدراسة الكاتب والصحافي التقدمي الفرنسي هنري علاق، الذي سبق له أن شارك مباشرة في ثورة التحرير الوطني، وألف كتابا مشهورا بعنوان "السؤال". وبعد أن يقدم المؤلفون للقارئ صورة شاملة للتاريخ العام للجزائر، وكفاح شعبها ضد الغزاة في كل الحقب، وبالدرجة الأولى ضد المستعمر الفرنسي، يخرجون عن أطر العرض الأكاديمي الصرف، فيخرقون مرارا التعاقب الكرونولوجي للأحداث. ورغم ذلك تكتسب الدراسة

طابعا جدليا حادا، وهي غنية وممتعة، بفضل معلوماتها الوقائعية والإيضاحية، المستمدة في أغلبها من الصحافة الفرنسية، والجزائرية، الكولونيالية، ومن الأحاديث المباشرة مع من عاصروا تلك الأحداث الهامة. وتكتسي أهمية خاصة بالنسبة لنا شهادات شخصيات الجناح الاندماجي في الحركة الوطنية. ويشير هنري علاق حين يقيم نشاط الفتيان الجزائريين؛ إلى أنه بصرف النظر عن كون تحركاتهم جرت باسم نخبة متفرنسة محدودة العدد، إلا أن شعاراتهم ومطالبهم كانت تعبر في نهاية المطاف عن "الآمال العريضة للشعب الجزائري."

واحتلت مشاكل نشأة الوطنية الجزائرية مكانة معتبرة في أعمال المؤرخ الاشتراكي الفرنسي الكبير شارل أندري جوليان. ففي كتابه: "أفريقيا الشمالية تسير" يدرس عملية تنامي الحركة المناهضة للاستعمار، في الممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا. ويشير إلى عدم جدوى محاولات فرنسا، لإنقاذ إمبراطوريتها الاستعمارية.

وكتب أندري جوليان محددا دور البورجوازية الوطنية في الكفاح التحرري لشعوب المغرب، "إن هذه الطبقة الصاعدة التي كانت تتألم من الحيف السياسي وعدم المساواة، اقتصرت على المطالبة بالإصلاحات مدة من الزمن. وعندما خابت آمالها أصبحت متأهلة لاعتناق الوطنية وتزويدها بالإطارات اللازمة ".

انتقد جون كلود فاتان "العلم التاريخي الكولونيالي" في دراسته التي نشرت سنة 1974 تحت عنوان: "الجزائر السياسية التاريخ والمجتمع"، والمخصصة للتطور السياسي للسكان الأصليين للجزائر في العهد الاستعماري. ويثير الاهتمام هنا تقييم المؤلف لدور الفئات الوسطى، التي ولدت في أوساطها "أول حركة سياسية منظمة وقادرة على معارضة السياسة الفرنسية..."، ويرى فاتان "أن اندماجية الفتيان الجزائريين كانت تهدف إلى بلوغ المساواة الاجتماعية والسياسية بين الأوروبيين، والمسلمين". إن كتاب فاتان "الجزائر السياسية التاريخ والمجتمع" يعتبر عملا من الأعمال القليلة، التي تقدم شرحا مفصلا لنشاط الفتيان الجزائريين.

وكرست الباحثة الفرنسية(ف. كولونا) التي اشتغلت فترة من الزمن في الجزائر كتابها "المعلمون الجزائريون" 1939-1883، لتكوّن إحدى المجموعات الأساسية من الانتيليجنسيا الجزائرية المفرنسة .وهم الإطارات التعليمية للمدارس الكولونيالية ودروهم الاجتماعي. وبعد تحليلها للمغزى السياسي للنظام الفرنسي لتعليم "الأهالي"، تصل المؤلفة إلى استنتاج مفاده "أن

أحد الاتجاهات في الحركة الوطنية (في الجزائر) تأثر بوضوح بتلك القيم التي ظهرت بفضل المدرسة الفرنسية "...

وقد انتقد بحدة الموظف السياسي لدى الحاكم العام السيد ديبون أنصار إصلاح وضع المسلمين الجزائريين الاجتماعي، والسياسي، وخصص بحثه "جزائر الذكرى المئوية" بصورة رئيسية لمدح "جهود فرنسا" الموجهة لتحرير الأهالي، وكسبهم معنويا، وتطويرهم اجتماعيا"، وكتب بعصبية بيّنة عن نشاط الفتيان الجزائريين و"محاميهم العظيم" ألبين روزي: هذا النشاط الذي أضر "بسمعة وهيبة ممثلي فرنسا "

ويحتوي كتاب ديبون وكذلك الأعمال المذكورة آنفا لفوريي وميلي وشخصيات سياسية واجتماعية بارزة أخرى من ممثلي الإدارة الاستعمارية، الذين تعرفوا عن كثب على الحياة الجزائرية، على عناصر شهادات عيانية مباشرة عن الأحداث الموصوفة. وثمة أيضا معلومات مهمة عن الوضع السياسي للمسلمين الجزائريين، في ظروف الاستعمار الفرنسي، تضمنتها أعمال المفتش العام السابق للجيوش الاستعمارية السيد "V.PIQUET" الجزائر الفرنسية قرن من الاستعمار"، و"الاستعمار في شمال أفريقيا"، و"الإصلاحات في الجزائر" و"وضع الأهالي". وكتاب رجل القانون الفرنسي–الجزائري المعروف والنائب الكاثوليكي في الجزائر" VIARD ،الحقوق السياسية لأهالي الجزائر"، وكتاب المستشار العام لقسنطينة وعضو المجلس الأعلى للجزائر السيد" E.MERCIER مسألة الأهالي والجزائر في مطلع القرن العشرين."

أما "التطور السياسي لشمال أفريقيا الإسلامية" للخبير الكبير في الشؤون المغاربية السيد لوتورنو الذي اشتغل أكثر من عشرين سنة في بلدان المغرب، فهو تقييم لحصيلة الهيمنة الفرنسية في الجزائر، وتونس، والمغرب. لكن لوتورنو يتجنب حين يتطرق إلى السبل المؤدية لاستقلال أفريقيا الشمالية، الحديث عن الأسباب الحقيقية للصعود الثوري الفاجعة، عن تطور الامبريالية نفسها، في مرحلة أزمتها العامة. ويكتب فقط عن "أزمة الالتحاق بركب العالم الجديد"، التي تعانيها بلدان المغرب. أن قيمة هذا الكتاب تكمن في رأينا بلا ريب؛ في كونه يسمح بتتبع ومقارنة تطور الحركة المناهضة للاستعمار، في الممتلكات الفرنسية الثلاث في شمال أفريقيا.

وتتضمن مؤلفات بورديو "BOURDIEU سوسيولوجية الجزائر"، وجاك بيرك"BERQUE المغرب:تاريخ ومجتمعات"، وشارني "الحياة الإسلامية في الجزائر"، تحاليل سوسيولوجية للمجتمع الجزائري أثناء الفترة الاستعمارية. وهناك أعمال ذات طابع تاريخي عام على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لموضوعنا، مثل المؤلفات الخاصة بتاريخ الجزائر لـ" ESQUER تاريخ الجزائر"، ومارتن "تاريخ الجزائر الفرنسية"، واسنار" ISNARD المغرب". كما درست مراحل معينة من الهيمنة الفرنسية في الجزائر في بحوث" K. VIGNES الحاكم العام تيرمان، ونظام الإلحاق" ودومينيك" L.C.DOMINIQUE الحاكم العام للجزائر" "الأميرال غيدون."

ويلفت الانتباه في علم التاريخ الغربي في رأينا كتاب France Algeria.The problem of civil and political reform 1870-1920 للمؤرخ الأمريكي كونفير V.CONFER والمخصص للكفاح من أجل إصلاح "السياسة الأهلية" الفرنسية في عهد الجمهورية الثالثة. وهذا البحث متحرر من الكثير من مواطن الضعف المميزة لأعمال المؤرخين البورجوازيين الفرنسيين، الذين يتحيزون بوضوح، حين يتناولون المسائل الاستعمارية وخاصة المشكلة الجزائرية. ويصف كونفير بإسهاب حركة الفتيان الجزائريين، ويشير إلى أنه بين 1890 و1914 ولد "جيل جديد من الجزائريين، وهو الجيل الأول بعد الاحتلال، وإخضاع البلاد الذي خرج منه "ممثلو نخبة شبه أوروبية، ميالة إلى التعاون مع الاستعماريين."

ويتناول المؤرخ الألماني W.Ohneck في كتابه "سياسة فرنسا الجزائرية بين 1919- 1939" الكفاح السياسي حول المسألة الجزائرية، ويقدم وصفا مفصلا لمعسكر الفرنسيين "المحبين للعرب"، ويتوقف بشكل خاص عند موقف الاشتراكيين، وعلى رأسهم جون جوريس من الإصلاحات السياسية والإدارية في الجزائر.

ويمكن الإشارة في علم التاريخ الانجليزي المخصص لهذه المشكلة، إلى مقالة باربور، N.Barbour NORTH-WEST Africa : Independance and Nationalism والمنشورة في مجموعة أعمال ملتقى الدراسات الإفريقية. ويبدو لنا أن آراءه تثير الكثير من الجدل، خاصة حين يؤكد "أن الاندماجية وجدت تربة خصبة لها وسط المسلمين الجزائريين، لأنهم ليس لهم "ماض إسلامي مستقل، يمكن أن يحلموا بأحيائه، لذلك اتجهوا في البداية إلى فكرة الاندماج، وكانوا يعولون الحصول على وضع مدني مساو لوضع الأوروبيين في البلاد، التي يشكلون أغلبيتها". إن سطحية مثل هذه النظرة الحالمة تبدو واضحة.

وهكذا فان التعرف على علم تدوين التاريخ الخاص بالفتيان الجزائريين، يبين أن هذه المشكلة لم تكن موضوع دراسة خاصة لحد الآن. كما أن توفر معلومات وحقائق كافية، وتحليل الاتجاهات الرئيسية في تطور الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار في العصر الحديث، وكذلك تحليل جوانب معينة في حركة الفتيان الجزائريين، بحصر المعنى، والذي تم في الفترة الأخيرة في علم التاريخ الروسي، والأجنبي، يشهد على إمكانية تناول هذه المشكلة تناولا خاصا، وعلى أهميتها أيضا. وهو ما يساعد في رأينا على الكشف عن نقطة التحول الهامة في تطور حركة التحرر الوطني للشعب الجزائري، التي بينت أحداثها، بأنه إلى جانب "صحوة أسيا" في بداية هذا القرن، كانت هناك عملية عاصفة "لصحوة أفريقيا"، ساعدت الفتيان الجزائريين بدرجة كبيرة على نشرها.